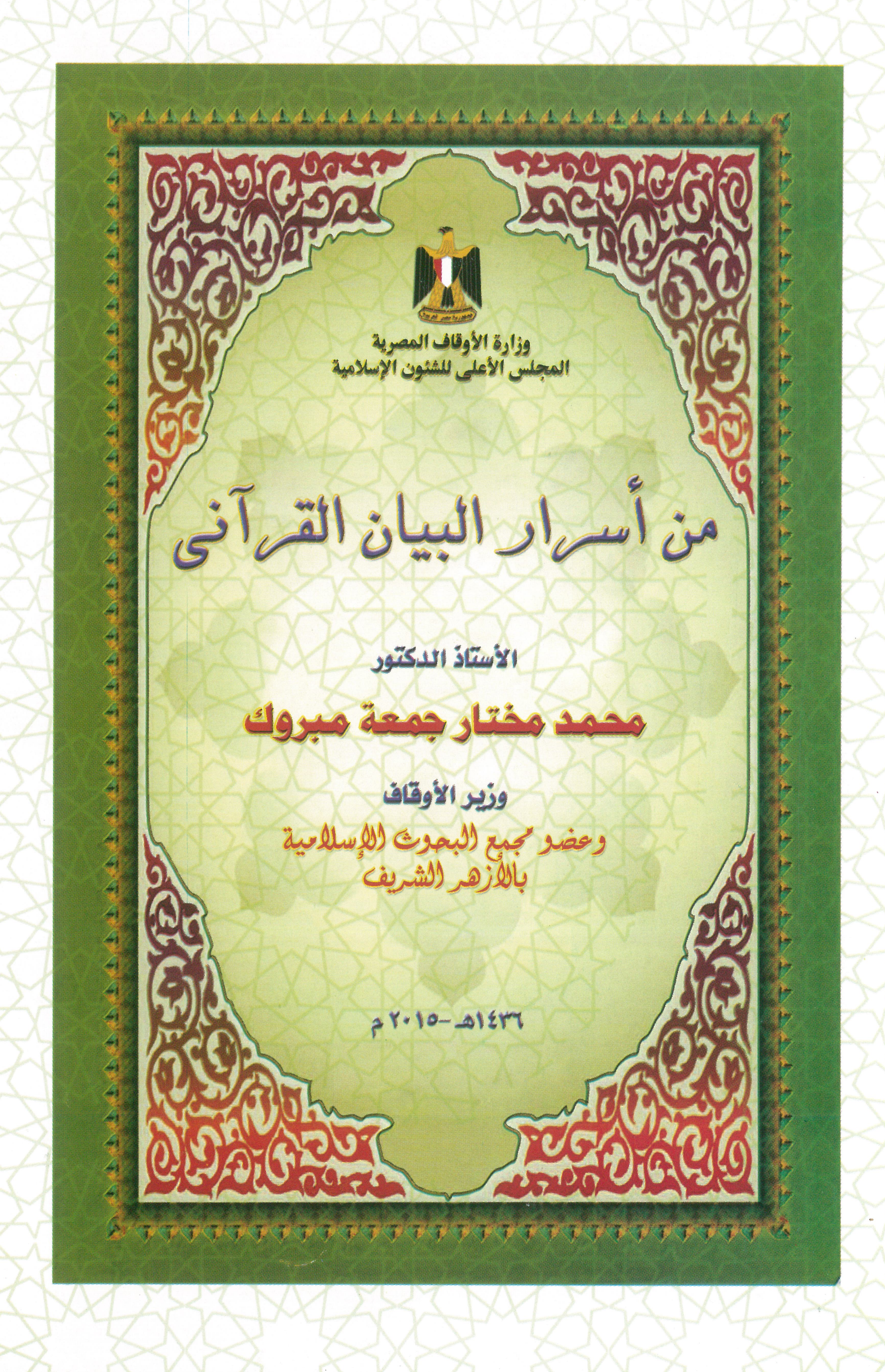
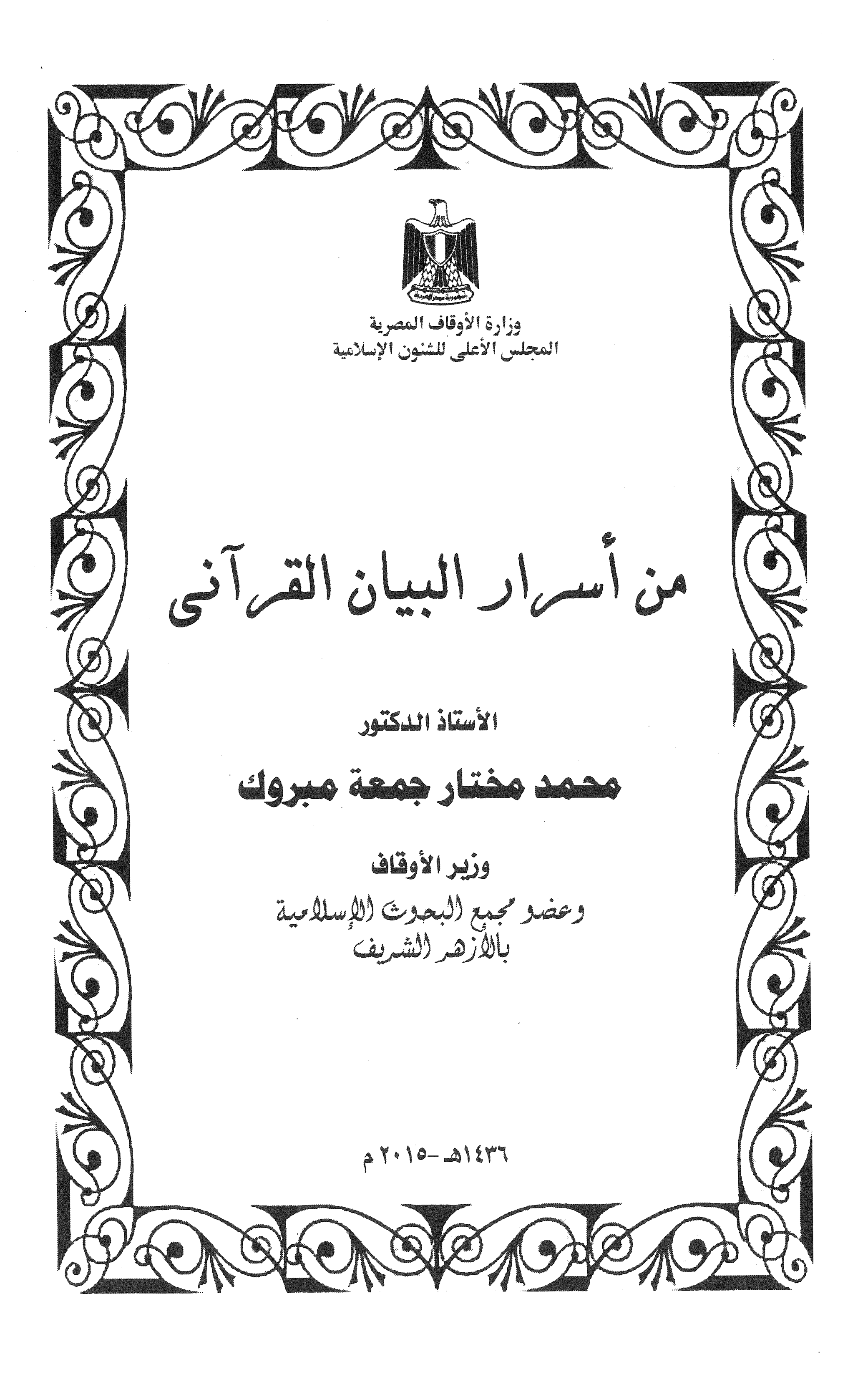


وزارة الأوقاف المصرية
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
من أسرار البيان القرآنى
الأستاذ الدكتور
محمد مختار جمعة مبروك
وزير الأوقاف
وعضو مجمع البحوث الإسلامية
بالأزهر الشريف
١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م





وزارة الأوقاف المصرية
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

من أسرار البيان القرآني

الأستاذ الدكتور

محمد مختار جمعة مبروك

وزير الأوقاف

وعضو مجمع البحوث الإسلامية
بالأزهر الشريف

١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

بسم الله الرحمن الرحيم

" وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ "

(فصلت: ٤١، ٤٢)

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم أنبيائه ورسله سيدنا محمد بن عبد الله ، وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه إلى يوم الدين .

وبعد :

فيقول الحق سبحانه في شأن القرآن الكريم مخاطبًا نبيه محمدًا (صلى الله عليه وسلم) : " وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ".

والقرآن الكريم هو كلام الله عز وجل المنزل على عبده محمد (صلى الله عليه وسلم) ، المتعبد بتلاوته ، المتحدى بأقصر سورة منه ، من قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، وهو الفصل ليس بالهزل ، لا يشبع منه العلماء ، ولا تنقضي عجائبه ، ولا يخلق عن كثرة الرد ، لم تلبث الجن إذ سمعته أن قالت : " إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا " ، ودعوا إلى الإيمان به : " قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ * يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ " .

وما أن سمع أحد الأعراب قول الله تعالى : " وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ " حتى انطلق قائلاً : إن هذا كلام رب العالمين لا يشبه كلام المخلوقين ، وإلا فمن ذا الذي يأمر الأرض أن تبلع ماءها فتبلع ؟! ، ويأمر السماء أن تمسك ماءها فتقلع ؟! ، ويأمر الماء أن يغيض فيطيع ويسمع ؟! ، إنّه رب العالمين ولا إله سواه.

وما أن سمع الوليد بن المغيرة بعض آيات القرآن حتى انطلق قائلاً : والله ما هو بالسحر ، ولا بالشعر ، ولا بالكهانة ، والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه ليعلو ولا يُعلَى عليه .

وهو أحسن الحديث وأبلغه ، وأصدق القصص وأجمله ، وخير الكلام وأعذبه ، يقول الحق سبحانه وتعالى : " اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ" (الزمر : ٢٣) .

والقرآن الكريم يرفع من شأن صاحبه في الدنيا والآخرة ، فعن عبد الله بن عمر (رضي الله عنهما) قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم):" يقال لصاحب القرآن اقرأ وارتق

ورتل كما كنت ترتل في الدنيا ، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها " .و يقول (عليه الصلاة والسلام) : " إِنَّ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَهْلَيْنِ مِنَ النَّاسِ " ، قِيلَ : مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ: " أَهْلُ الْقُرْآنِ هم أهل الله وخاصته " ، ويقول (صلى الله عليه وسلم) " خيركم من تعلم القرآن وعلمه ".

ومما يؤكد علو منزلة حامل القرآن الكريم ما كان من النبيّ (صلى الله عليه وسلم) مع سيدنا أُبيّ بن كعب (رضي الله عنه) ، حيث قال (صلى الله عليه وسلم) لأُبيّ يومًا : يا أُبيّ إني أمرتُ أن أعرض عليك القرآن - أي أن أقرأه عليك - فقال أُبيّ : عليَّ أنا يا رسول الله ؟! فقال عليه الصلاة والسلام: عليك أنت يا أبيّ ، ويكررها أُبيّ : عليَّ أنا يا رسول الله ؟! فيقول النبي: (صلى الله عليه وسلم): " نعم ، عليك أنت يا أبيّ " ، وأُبيّ يعلم أن النبي (صلى الله عليه وسلم) لا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى " إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى " فقال أُبيّ : " أذكرتُ لك باسمي يا رسول الله ؟! فقال النبيّ (صلى الله عليه وسلم) : " نعم لقد ذُكرتَ لي باسمك ونسبك في الملأ الأعلى يا أُبيّ .

وعلى الجملة فالقرآن الكريم هو أعلى درجات البلاغة والبيان ، يقول الإمام عبد القاهر الجرجاني في كتابه دلائل الإعجاز : القرآن الكريم هو الذي يهجم عليك الحسن منه

دفعة واحدة ، فلا تدري أجاءك الحسن من جهة لفظه أم من جهة معناه ، إذ لا تكاد الألفاظ تصل إلى الآذان حتى تكون المعاني قد وصلت إلى القلوب ، فكل لفظة أو كلمة في القرآن الكريم قد وقعت موقعها حيث هي مقصودة لذاتها ، لا يسد مسدها سواها لا من المترادفات عند القدماء، ولا من حقول الاستبدال الرأسي أو الأفقي عند المحدثين ، وما ذُكر في القرآن الكريم كان مقصودًا لذاته لا يقوم الحذف مقامه ، وما حُذف كان حذفه في موضعه أبلغ من الذكر .

وهذه خواطر بيانية حول بلاغة بعض المفردات والتراكيب القرآنية تكشف عن بعض أسرار هذا الكتاب الحكيم ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

وإني لأضرع إلى الله عز وجل أن يتقبل هذا العمل وأن يجعله خالصًا لوجهه الكريم .

والله من وراء القصد وهو حسبنا ونعم الوكيل

أ.د / محمد مختار جمعة

وزير الأوقاف

وعضو مجمع البحوث بالأزهر الشريف

المبحث الأول

من بلاغة المفردة القرآنية

من بلاغة المفردة القرآنية

تتميز لغة القرآن الكريم بأن كل لفظة أو مفردة من مفرداتها قد وقعت موقعها ، حيث يقتضي المقام ذكرها دون سواها أو مرادفها ، فإذا جاءت الكلمة معرفة أو نكرة كان لاقتضاء المقام ذلك ، وإذا جاءت مفردة أو جمعًا كان ذلك لغرض يقتضيه السياق ، وقد يؤثر النص القرآني كلمة على أخرى وهما بمعنى واحد ، ويختار كلمة ويهمل مرادفها الذي يشترك معها في أصل الدلالة ، وما كان للمتروك أن يقوم مقام المذكور أو يدانيه بلاغة لو ذكر مكانه ، ومن نماذج ذلك :

١-كلمة " إصلاح " في قوله تعالى : " وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ" (البقرة : ٢٢٠).

فلو تأملنا هذه الآية جيدًا ، ونظرنا – على وجه التحديد – في موقع كلمة " إِصْلَاحٌ " ، ثم فكرنا في بدائلها اللغوية ومشتقاتها وما يرادفها ، وحاولنا أن نضع أي بديل لغوي – رأسيًا أو أفقيًا – في موضعها لوجدنا أن العربية على عمقها واتساعها عاجزة عن أن توافينا أو تمدنا بكلمة يمكن أن تقوم مقام كلمة " إِصْلَاحٌ " في هذا الموضع .

فالإصلاح أمر جامع لما يحتاج إليه اليتيم ، فقد يحتاج إلى المال فيكون الإصلاح برًا وعطاءً ماديًا ، وقد يحتاج إلى من يتاجر له في ماله أو من يقوم على زراعته أو صناعته فيكون الإصلاح هو القيام بذلك ، وقد لا يحتاج اليتيم إلى المال ، إنما يحتاج إلى التقويم والتربية ، فيكون الإصلاح هنا رعاية وتربية ، وقد لا ينقصه هذا ولا ذلك ، إنما تكون حاجته أشد ما تكون إلى العطف والحنو والإحساس بالأبوة ، فيكون الإصلاح إشباع ذلك عنده.

وقد يكون الإصلاح في تقويم زيغه أو اعوجاجه ، فقد جاء أحد الناس يسأل النبي (صلى الله عليه وسلم) : ممّ أضرب يتيمي ؟ فقال (صلى الله عليه وسلم) : " مما كنت ضاربا منه ولدك "، فالنبي (صلى الله عليه وسلم) يطلب من السائل أن يعامل اليتيم معاملة ولده ، فينظر إلى ما يصلحه ويقوّمه ويشد عضده ، ومن هنا تلتقي البلاغة النبوية في إيجازها ووفائها بالمراد مع النص القرآني ، وإن كان الحديث النبوي قد ركز على جانب واحد من جوانب الإصلاح ، وهو التأديب والتقويم ، فإن الإصلاح في النص القرآني هو الكلمة الجامعة لما يحتاج إليه اليتيم وما يصلحه.

٢-كلمة " بِحَرْبٍ " في قوله تعالى : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * فَإِنْ لَمْ

تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ"(البقرة: ٢٧٨-٢٧٩).

فكلمة "بحرب" هنا وقعت موقعا لا يمكن لأي بديل لغوي أن يقوم مقامها فيه ، فهي المعادل اللغوي الأنسب والأدق ، القادر على ردع النفوس المتعلقة بالمال ، القابلة للربا أو المتحايلة عليه ، فتعلق بعض الناس بالمال ، وبخاصة الكسب السهل السريع عن طريق الربا لا يردعه إلا علم هؤلاء بأنهم إنما يحاربون الله ورسوله ، وهي حرب معلومة النتائج، مدمرة لمن يتعدى حدود الله أو يخرج على شريعته ، وقد سئل سيدنا عبد الله بن عباس: " أي آية في كتاب الله أشد ؟ فقال : لقد قرأت ما بين الدفتين فما وجدت آية في كتاب الله تعالى أشد من آية الربا ؛ لقوله تعالى : " إِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ "، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): " ما ظهر في قوم الزنا والربا إلا أحلوا بأنفسهم عذاب الله".

٣-كلمة " تداينتم " في قوله تعالى : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ " (البقرة:٢٨٢).

ففي قوله تعالى " تداينتم " صيغة مبالغة ، تفيد المشاركة ووقوع الفعل من كلا الطرفين ، وهما هنا الدائن والمدين ، مما يفيد أن الأمر بكتابة الدين موجه إليهما معًا ، لا إلى

الدائن فقط ، مما يجعل حرص المدين على كتابة دينه واستجابته لأمر الله تعالى في ذلك كحرص الدائن على ذلك سواءً بسواء ، لا كما نراه في بعض نماذج عصرنا الحاضر من أنفة المدين من كتابة الدين ، واعتبار ذلك خدشًا لكرامته ونيلاً من الثقة فيه ، وإن لم يقم أحد بالاعتراف به وقضائه عنه وقع تحت طائلة قوله (صلى الله عليه وسلم) : " والذي نفسي بيده لو قتل أحدكم في سبيل الله ثم عاش ، ثم قتل ، ثم عاش ، ثم قتل وعليه دين ما دخل الجنة حتى يقضي دينه " (مسند أحمد) .

وفي قوله تعالى : " إلى أجل مسمى" ما يفيد موعد السداد بالسنين والأيام والشهور ، ولا بأس أيضًا بإضافة مكان السداد ومحله ، فكل ما يكفل سداد الدين وأداءه بلا لبس ولا مماطلة يعد مطلبًا شرعيًا ، ولا ينبغي أن يكون أجل السداد ملبسًا غير معلوم الزمن ، كأن يقول له : سأسدد دينك إذا بعت داري أو عاد ولدي من السفر ونحوه مما لا يضبط بعام معين وشهر معين ويوم معين .

٤-كلمة " ولا يُضارّ " في قوله تعالى : " وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ" (البقرة: ٢٨٢) .

فهي – هنا – كما يذكر كثير من المفسرين مبنية للفاعل

والمفعول معًا ، ويفسر ذلك قراءة من قرأ بالفك والكسر " ولا يضارر " وقراءة من قرأ بالفك والفتح ، فعلى القراءة الأولى يكون المعنى : ولا يضارر كاتب ولا شهيد أو المدين فعلى الكاتب أن يكتب بالعدل ، وعلى الشاهد أن يشهد بالحق .

وعلى القراءة الأخرى يكون : ولا يضار كاتب ولا شهيد ، أي ولا يُضرّ كاتب ولا شهيد ، ذلك أنّ بعضهم كان يذهب إلى الكاتب فيجعله عن أمره يقول له : اكتب الآن لأن الله تعالى يقول : " وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ" كما أنّ بعضهم قد لا يوفي الكاتب حقّه ، وذلك بأن يكون الكاتب محترفًا الكتابة منقطعًا لها كما هو الشأن في مهنة المحاماة الآن فلا يوفيه المستكتب حقّه وأجر كتابته ، فجاء النهي عن مضاره الكاتب بإعجاله عن أساسيات حياته أو عدم توفيته حقّه على كتابته إن كان منقطعًا لها محترفًا إياها .

ولا ينبغي أيضًا أن يضار الشاهد أو الشهيد كأن تكلفه مؤنة الانتقال من محافظة إلى أخرى أو من دولة إلى أخرى ليشهد معك أو لك ، وقد لا تساعده إمكاناته المادية على هذا الانتقال ، فلا تحمّله فوق طاقته ، بل على صاحب المصلحة في الشهادة أن يتحمل مؤنة نقل الشاهد إلى مكان الشهادة ، وبخاصة إذا كان الشاهد رقيق الحال

لا يقوى على مؤنة النقل ، بل أقول إنّ الشاهد إذا كان ممن يكسب قوته وقوت أبنائه يومًا بيوم . وكان تفرغه وذهابه للشهادة في هذا اليوم سيضر بقوته وقوت أبنائه فإنّ على صاحب المصلحة في الشهادة أن يعوضه عما يلحقه من ضرر بأن يدفع له ما يوازي أجر هذا اليوم الذي يتعطل فيه عن كسب قوته وقوت أبنائه.

٥-كلمة "حنيذ" في قوله تعالى : (فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ) (هود: ٦٩) .

قوله تعالى: « فما لبث » يفيد اعتناء إبراهيم (عليه السلام) بضيوفه وإسراعه فى إعداد الطعام وتقديمه لهم، وقوله تعالى: «جاء بعجل» مع أن ضيوفه كانوا على ما قال ابن عباس وابن جبير ثلاثة فقط ، أو كانوا اثنى عشر على أقصى عدد ذكره المفسرون ، فجاء إبراهيم (عليه السلام) لهم بعجل مع علمه أنهم لا يأكلون ربعه أو عشره زيادةً فى إكرام الضيف ، إذ يستحب أن يقدم للضيف فوق ما يأكل عادة حتى لا يكون فى حرج من نفاد ما يقدم له من طعام.

ووصف العجل هنا بأنه «حنيذ» وفى سورة الذاريات بأنه «سمين» من باب التنويع الأسلوبي والجمع بين الوصف العام والوصف الخاص ، فبين كلمتي «سمين» و«حنيذ» عموم وخصوص مطلق ، فكل حنيذ سمين ، وليس كل

سمين حنيذًا ، فالحنيذ : هو السمين الذى يقطر ودكه أي شحمه ودهنه . وقيل: السمين المشوى بالرضف أى : الحجارة المحماة فى أخدود أو نحوه . وكل ذلك إنما يدل على شدة كرم أبى الأنبياء إبراهيم (عليه السلام).

٦- كلمة " قائمة " فى قوله تعالى:(وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَت فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَقَ يَعْقُوبَ) (هود:٧١) .

والمراد بقوله تعالى : « قائمة » كما ذكره أكثر المفسرين وأخرجه ابن أبى حاتم عن مجاهد « أنها كانت قائمة فى الخدمة ، أي فى خدمة ضيوف إبراهيم (عليه السلام) ، وذلك مع تقدم سنها . فقد ذكر بعض المفسرين أنها كانت في التاسعة والتسعين ، وذلك يدل على علو همة آل بيت إبراهيم (عليه السلام) جميعًا فى كرم الضيافة والاعتناء بأمر الضيوف ، ونذكر هنا قول حاتم الطائي :

وإنى لعبد الضيف ما دام ثاويا

وما فيّ إلا تلك من شيم العبد

وذكر بعض المفسرين أن قيامها كان من وراء ستار ، وذكر بعضهم أن نساءهم كانت لا تحتجب ولا سيما العجائز ، وقد كانت (رضي الله عنها) عجوزًا ، وغنى عن الذكر أنها كانت فى زي المؤمنات الصالحات.

أما ضحكها فقيل: إنه كان سرورا بإهلاك أهل الفساد من

قوم لوط ، وقيل: من غفلة قوم لوط مع قرب عذابهم ، وقيل: تعجبًا من إمساك الأضياف عن الأكل ، حيث قالت : عجبا لأضيافنا نخدمهم بأنفسنا ولا يأكلون طعامنا.

٧- كلمة " الْخَاطِئِينَ " في قوله تعالى : " يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ "(يوسف : ٢٩) .

يقول النحويون : إن جمع المذكر قد يطلق على جمع المؤنث على سبيل التغليب ، لكن النحويين والأصوليين يتفقون على أن ما جاء على أصله لا يسأل عن علته ، وما جاء على خلاف الأصل فلابد لخروجه على هذا الأصل من علة .

هنا نقطة هامة في العدول عن صيغة جمع المؤنث : " الخاطئات " إلى صيغة جمع المذكر : " الخاطئين " ، ذلك أن الأصل في المرأة أن تكون مطلوبة وأن تكون معززة ، وأن تكون ممنعة ، وأن تكون متأبية ، والمرأة العربية الأصيلة تمتدح بالإباء والتمنع ، والأصل في الرجل أن يكون خاطبا وطالبا ومتوددا - وفق شرعة الله ومنهجه - ، فلما عكست امرأة العزيز الفطرة الإنسانية السليمة السوية ، وتقمصت شخصية الرجال - فهي التي طلبت ، وهي التي راودت ، وهي التي هيأت - فلما فعلت ذلك جاء التعبير اللغوي على خلاف الأصل ليناسب حالها المعكوس ، وكأن النص القرآني

يلفت أنظارنا إلى أن ما كان من امراة العزيز هو خلاف ما تقتضيه الفطرة الإنسانية النقية . فكان التعبير بلفظ الخاطئين هو المعادل اللغوي الأنسب والأدق لما كان من امراة العزيز.

٨-كلمة " فَاسْتَعْصَمَ " في قوله تعالى: " وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ "(يوسف: ٣٢) .

فكلمة (استعصم) هي المعادل اللغوي الأدق لتصوير عفة يوسف (عليه السلام) ، ووقوفه كالجبل الشامخ الأشم في مواجهة إغراء امرأة العزيز له . فهو لم يعتصم بحبل الله فحسب . لكنه استعصم .

وإذا كانت زيادة المبنى زيادة في المعنى فإنه قد قابل زيادة إغرائها تارة وتهديدها أخرى بمزيد من الاستعصام بحبل الله المتين .

يقول الزمخشري: إن الاستعصام بناء مبالغة تدل على الامتناع البليغ والتحفظ الشديد كأنه في عصمة وهو مجتهد في الاستزادة منها ، بل إن يوسف (عليه السلام) قد قابل تهديدها له بالسجن بدعائه ربه (عز وجل) أن يصرف عنه كيدهن حتى لو كان ذلك بإلقائه في السجن ، حيث قال – كما تحدث القرآن الكريم على لسانه – : " رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ "(يوسف : ٣٣) .

فقد طلب يوسف (عليه السلام) العصمة واستمسك بها في صلابة ورباطة جأش حتى استجاب له ربه ، وهو ما يصوره قول الحق سبحانه وتعالى : " فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ " (يوسف : ٣٤) .

٩-كلمة " فانتبذت " وكلمة " فأجاءها " في قوله تعالى في سورة مريم (عليها السلام) : " فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَاناً قَصِيّاً * فَأَجَاءهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْياً مَّنسِيّاً * فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً * وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً * فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيّاً "(مريم : ٢٢-٢٦) .

في هذه الآيات فوائد ونكات علمية وبلاغية كثيرة ، منها:
أ-التعبير بلفظ " انتَبَذَتْ "، ولم يقل قصدت أو طلبت ، وإنما اختار النص القرآني لفظًا يُعادل الحالة التي كانت بينها وبين قومها ، وهي حالة النبذ لها ، والرفض لما بدا عليها من علامات الحمل ، وهو ما تجلّى في قولهم لها : " يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً " (مريم : ٢٨) .

ب- " فَأَجَاءهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ ".

جاء التعبير بلفظ " فأجاءها " بمعنى ألجأها إلجاءً واضطرها اضطرارًا ، حيث كانت تريد أن تتوارى عن أعين القوم ، ثم إن المخاض وهو إرهاصات الولادة يكون من أصعب لحظاتها . فكأنها تتحرك حركة عفوية لا إرادية من الألم النفسي من جانب . والألم الجسدي من جانب آخر ، وكان الإلجاء أو اللجوء إلى جذع النخلة حيث كانت وحيدة فريدة تحتاج إلى شيء قائم صُلب تمسك به أو تستند إليه ، حيث فقدت من تستند إليه أو من يحنو عليها في عالم البشر ، فقالت : " يا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْياً مَّنسِيّاً ".

١٠ -كلمة " يسمعونكم " في قوله تعالى على لسان إبراهيم (عليه السلام):" قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ " (هود:٧٢،٧٣) ، ففي قوله تعالى : " قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ " استخدم النص القرآني لفظ يسمعون مع أنّ الدعاء يناسبه الإجابة - نقول : منا الدعاء ومنك الإجابة ، يقول الحق سبحانه : " وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ " (غافر :٦٠) ، ويقول جلّ في عُلاه : " وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ

فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ "(البقرة : ١٨٦) – وذلك لأن هذه الأصنام العائد إليها الضمير في قوله تعالى : " هل يسمعونكم " لا تسمع أصلاً . وإذا انتفى السماع من أساسه فلا أمل ولا تفكير في الإجابة على الإطلاق . فإذا قيل لك هل أجابك فلان ؟ فقلت إنه لا يسمعني أصلاً أو لا يريد أن يسمعني ، كان ذلك قطعًا منك للأمل في إجابته إياك ، وهذا هو حال الأصنام التي لا تسمع ، فكيف تجيب ؟.

١١-كلمة " ضيزى " في قوله تعالى: " تلك قسمة ضيزى" (النجم : ٢٢) .

والقسمة الضيزى : هي القسمة الظالمة أو الجائرة المائلة عن الحق ، يقال: ضاز في الحكم أي جار ، وعليه قول الشاعر:

ضازت بنو أسد بحكمهم

إذ يجعلون الرأس كالذنب

فلماذا آثر النص القرآني التعبير بكلمة " ضيزى " دون سواها ؟ ينظر بعض الكتاب إلى الجانب الإيقاعي ، فيقول : إن كلمة "ضيزى" وقعت هذا الموقع مراعاة للفاصلة، وانسجامًا مع كلمات : " الكبرى " ، " العزى " ، " الأخرى" ، " الأنثى " في الفواصل التي قبلها و" الهدى" " تمنى " ، " الأولى" في الفواصل التي بعدها .

وأرى أنّ مجرد الإيقاع الصوتي ومراعاة الفواصل لا يمكن أن يكون أساسًا لتفسير النص القرآني وفهم أسراره . فالفاصلة في القرآن الكريم جزء من صلب المعنى . فإنها تنبثق من روح المعنى ولا تأتي إلا إذا اقتضاها المقام وتطلبها السّياق بحيث لا يصلح في مكانها غيرها .

فالسياق الذي وردت فيه كلمة " ضيزى " فيه غرابة موضوعية هي تلك القسمة الجائرة التي أنكرتها الآية السابقة لهذه الآية (ألكم الذكر وله الأنثى)؟ . ولفظ " ضيزى "بجرسه وإيقاعه ومعناه إنما هو أدق معادل لغوي لغرابة قسمتهم الجائرة التي جعلوا فيها لله البنات - سبحانه - واختصوا أنفسهم فيها بالبنين . تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا .

على أنّي أؤكد على أمرين:

أحدهما: أن الغرابة أمر نسبي . فربما كان اللفظ غريبًا بالنسبة لنا لبعدنا عن عصر نزول القرآن الكريم ، وضعف ثقافتنا اللغوية . لكنّه لم يكن غريبًا على من نزل عليهم هذا القرآن .

الآخر: أنّ كل كلمة في القرآن الكريم قد وقعت موقعها الذي يتطلبه المقام أو السّياق ، بحيث لا يمكن لغيرها أو نظيرها أو مرادفها أن يقوم مقامها فيه ، وأن لا شيء في القرآن قد ورد لمجرد مراعاة الفواصل أو التحسين اللفظي .

أو مراعاة للانسجام الصوتي . إنما كان لكل كلمة أو موقع أثره في المعنى المراد .

١٢-كلمة " القانتين " في قوله تعالى في قصة مريم (عليها السلام) : " وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ " [التحريم :١٢].

يقول النّحويون : إنّ جمع المذكر السالم قد يطلق على جمع المؤنث على سبيل التغليب . لكنّ النحويين والأصوليين يتفقون على أنّ ما جاء على أصله لا يُسأل عن علّته . وما جاء على خلاف الأصل فلا بد لخروجه على هذا الأصل من علّة .

ونؤكد أن هذه الآية واختيار هذا اللفظ نكتة علمية بلاغية في العدول عن صيغة المؤنث " القانتات " إلى صيغة المُذكّر " القانتين ". وذلك أنّ خدمة دور العبادة لم تكن تعهد إلى النساء قط . ولذا عندما وضعت امرأة عمران ابنتها مريم (عليها السلام) قالت : " رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ " [آل عمران: ٣٦] ، فلمّا قامت مريم (عليها السلام) بخدمة بيت الرب خير قيام ، وقامت مقام خيرة الرجال في هذه الخدمة راعى النص القرآني البعد الدلالي المعنوي للكلمة ، للتأكيد على أنها أدت دورًا هامًا لا يقوم به إلا الرجال الأقوياء

المخلصون ، بل قد لا يقوى عليه كثير من الرجال ، حيث يقول الحق سبحانه: " وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَى " أي وليس الذكر الذي كنت تتمنين كالأنثى التي رزقك الله (تعالى) بها ، فهي خيرٌ من كثير من الرجال في برّها وتقواها وخدمتها لبيت الله ، ومن هنا استحقت أن تكون في عداد " القانتين " لأنها قامت بما يقوم به الرجال ، ولم يعهد في زمانهم أن تقوم به النساء .

المبحث الثاني

من بلاغة التراكيب القرآنية

١ – في قوله تعالى : " وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا " (البقرة : ٢٨٢) .

ففي قوله تعالى : " وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ " قدم الصغير على الكبير للاهتمام به ، ولتسامح الناس فيه غالبًا ، وعدم انشغالهم بكتابته ، فإذا جاء الأمر بكتابة الدين القليل أو الصغير والنهي عن السآمة من كتابته أولا كانت العناية بكتابة الكثير أولى ، وذلك حتى لا يضجر أحد أو يضيق بكتابة الدين دائنًا كان أم مدينًا ، صغيرًا كان هذا الدين أم كبيرًا .

" ذَلِكُمْ أَقْسَطُ " أي أعدل وأقوم للشهادة ، وأدعى إلى عدم الشك والريبة في قيمة الدين ، أو في نية المدين للسداد ، أو في الأجل المحدد لسداد الدين ، فهو أقطع لكل أوجه الخلاف ، وأدعى لطمأنينة القلب لدى الطرفين ، وقد حملت الإشارة بـ " ذَلِكُمْ " كل هذه المعاني.

والعاقل من يتجنب الدين إلا للضرورة القصوى ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : " وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ ، لَوْ أَنَّ رَجُلًا قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، ثُمَّ عَاشَ ، ثُمَّ قُتِلَ فِي سَبِيلِ

اللَّهِ . ثُمَّ عَاشَ . وَعَلَيْهِ دَيْنٌ . مَا دَخَلَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَقْضِيَ دَيْنَهُ" (مسند أحمد) .

٢- قوله تعالى على لسان زكريا (عليه السلام) : " قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا " (آل عمران:٤١) ، وفي الآية العاشرة من سورة مريم : " قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا".

ذلك أن أيام العرب وشهورهم وسنيهم قمرية ، فالليل في حسابهم يسبق النهار ، ففي التاسع والعشرين من شعبان نترقب هلال رمضان ، فإذا ظهر هلال رمضان كانت أول ليلة من ليالي رمضان ثم يعقبها أول يوم منه ، وهكذا في هلال شوال وسائر الشهور .

وسورة مريم التي جاء فيها ذكر الليالي مكية ، وسورة (آل عمران) مدنية ، وسورة مريم سابقة في نزولها لسورة آل عمران ، فجعل السابق للسابق واللاحق للاحق .

٣- قوله تعالى : " وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ " (الأنعام : ١٠٠) .

ففي تقديم كلمة " شركاء " على كلمة " الجن " في هذه الآية فائدة جليلة ومعنى مقصود لذاته لا سبيل إليه مع

التأخير ، يقول الإمام عبد القاهر : وبيان ذلك أننا وإن كُنا نرى جملة المعنى ومحصوله أنهم جعلوا الجن شركاء وعبدوهم مع الله تعالى ، وكان هذا المعنى يحصل مع التأخير حصوله مع التقديم ، فإن تقديم الشركاء يفيد هذا المعنى ويفيد معنى آخر ، وهو أنه ما كان ينبغي أن يكون لله شريك لا من الجن ولا من غير الجن ، وإذا أخر فقيل : جعلوا الجن شركاء لله لم يفدْ ذلك ولم يكُن فيه شيء أكثر من الإخبار عنهم بأنهم عبدوا الجن مع الله تعالى ، وأما إنكار أن يعبد مع الله غيره ، وأن يكون له شريك من الجن وغير الجن فلا يكون في اللفظ مع تأخير الشركاء دليل عليه.

ففي حالة تقديم الجن على شركاء يتوجه الإنكار إلى كون الجن شركاء لله ، فيكون خاصًّا بذلك ، دون التعرض إلى وجود شركاء غير الجن لا بالإثبات ولا بالنفي ، أما في حالة تقديم شركاء على الجن فيكون الإنكار متوجهًا إلى مطلق اتخاذ شريك لله سواء من الجن أم من غيرهم ، ويدخل اتخاذ شريك لله سواء من الجن أم من غيرهم في هذا الإنكار ، ثم يأتي ذكر الجن بعد كلمة " شركاء" ليتوجه إليه الإنكار مرةً أُخرى على سبيل الخصوص ، فيكون النص القرآني قد أنكر عليهم اتخاذهم لله (عز وجل) شركاء من دونه سواء من الجن أم من غيرهم ثم زادهم

إنكارًا أو توبيخًا على خصوصية اتخاذهم الجن شركًا لله ، تعالى الله عن إفكهم وشركهم علوًا كبيرًا.

وفي هذا كله تأكيد على تنزيه الله (عز وجل) عن أن يكون له أي شريك ، وتأكيد على الاعتماد عليه وحده ، وحسن التوكل عليه ، والاستعانة به وحده دون أحد من الخلق.

وفي قوله تعالى: " وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ " (الأنعام: ١٠٠) ليس بخافٍ أن لتقديم الشركاء حُسنًا وروعةً ومأخذًا من القلوب لا تجد شيئًا منه إن أخّرت فقلت : وجعلوا الجنَّ شركاء لله ، وذلك لأنك لو قدمت فقلت : وجعلوا الجنَّ شركاء لله ، لكان الإنكار منصبًا على أن يكون الجن شركاء لله ، أمّا لو قلت : وجعلوا شركاء لله الجن ، لكان الإنكار مؤكدًا مرتين :

الأولى: إنكار اتخاذ أي شريك مع الله (عز وجل) من الجن أو من غيرهم .

والأخرى : إنكار أن يكون الجنُّ شركاء لله من باب ذكر الخاص بعد العام ، لشدة تعلقهم بالجنِّ ورهبتهم منه .

وهذا المعنى أقوى وأبلغ وأقطع في نفي أي شريك لله (عز وجل) سواء من الجن أم من غيرهم .

وإذا تيقن الإنسان أنه لا شريك لله (عز وجل) لا من

الجنّ ولا من غيره اتجه قلبه وعقله إلى الله وحده ، فلا يخاف إلا من الله (عز وجل) . ولا يعتمد إلا عليه ، فلا يغش ، ولا يكذب ، ولا يخادع ، لثقته أن الأمور كلها بيد الله وحده، وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه، يقول الحق سبحانه : " إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ " (يس : ٨٢) .

٤- قوله تعالى في سورة الأنعام : " وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ " (الأنعام : ١٥١) .

فقد قدم ضمير المخاطبين في قوله تعالى : "نرزقكم" على ضمير الغائبين في قوله تعالى " نرزقهم " ، وفي سورة الإسراء جاء الترتيب عكس ذلك في قوله تعالى : " وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ " (الإسراء :٣١) ، وكل قد وقع موقعه ، ففي الآية الأولى يقول الحق سبحانه : " وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ " ، فـ" من " هنا لبيان الحال ، أي لا تقتلوا أولادكم بسبب الفقر الواقع بكم خشية أن يزيدكم هؤلاء الأولاد فقرًا على فقركم ، ولما كان الفقير مشغولا دائمًا بحاله وواقعه ورزق يومه طمأنه الحق (عز وجل) على ذلك بقوله تعالى : " نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ" فبدأ بما يناسب حال المخاطبين ، ثم ثنى بقوله تعالى : " وَإِيَّاهُمْ " ليطمئنهم أيضًا على أبنائهم من بعدهم .

أما في آية سورة الإسراء فيقول سبحانه :" وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ " وأمر منطقي أن الذي يخشى الإملاق والفقر هو الغني لا الفقير . يقول الشاعر :

ألم تر أن الفقر يرجى له الغنى

وأن الغني يخشى عليه من الفقر

والغني - غالبًا- مشغول بحال أبنائه وتربيتهم وتدبير أمورهم أكثر من انشغاله بحال نفسه . فكان الأنسب لحاله أن يطمئن الحق سبحانه المخاطبين هنا على مايشغلهم وهو رزق أبنائهم . فبدأ بقوله سبحانه : " نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ " ثم ثنى بالحديث عن رزقهم هم بقوله : " وَإِيَّاكُمْ " وكأنه سبحانه وتعالى يقول لهم : كما رزقناكم فنحن بقدرتنا ومشيئتنا نرزق أبناءكم أيضًا .

وبهاتين الآيتين معًا يقطع النص القرآني الحجة على الفقير والغني معًا . ويزيل العلة التي من أجلها قد يقدم هذا أو ذاك على كبيرة قتل الأولاد من الفقر أو خشية الفقر . فلا عذر بعد ذلك لفقير ولا لغني . لأن الله (عز وجل) هو المتكفل برزق هذا أو ذاك ؛ بل إنه تكفل برزق كل دابة يقول سبحانه : " وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ"(هود : ٦) .

أ- وفى قوله تعالى: (أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنَّنِى لَكُم مِنْهُ نَذِيرٌ

وَبَشِيرٌ * وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُم ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ) (هود:٣،٢) تقديم الإنذارعلى البشارة هنا تناسب واتساق مع ما اشتملت عليه السورة من إهلاك الأمم الظالمة ، وتحذير لكل من يخالف منهج الله وشرعته ، حيث يعقب سبحانه على إرسال حجارة من سجيل منضود على قوم لوط بقوله سبحانه: (وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ) (هود:٨٣) فهذا تحذير لكل من تسول له نفسه الخروج عن منهج الله والانحراف عنه في أي زمان أو مكان.

ب- وفي قوله تعالى: (وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُم ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ) (هود:٣) تأكيد على أن الاستغفار الذي ينفع صاحبه هو ما صاحبه أو تبعه إقلاع عن الذنب ، وعزم أكيد على عدم العودة إليه ، أما مجرد الاستغفار باللسان دون استحضار لمعناه في القلب أو ظهور لأثره على الجوارح فهو كما قال بعض السلف الصالح : الاستغفار بلا إقلاع عن الذنب توبة الكذابين ، يقول الشاعر :

أستغفر الله من أستغفر الله

قول خلا لفظه من أصل معناه

٥- وفي قوله تعالى : (وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)(هود:٦) تأكيد على أن مسألة الرزق مردها إلى الله (عز وجل)

وحـده ، لا تجـرى علـى قـدر العقـول والأفهـــام ، يقـول أبو تمام :

لو كانت الأرزاق تجري على الحجا

هلكـن إذن من جهلهـن البهائـم

ويقول الإمام الشافعي رحمه الله :

ومن الدليل على القضاء وحكمه

بؤس اللبيب وطيب عيش الأحمق

ومع أن السعى والأخـذ بالأسباب مطلـوب ومشروع فإن الأمر كله فى ضمانة رب العالمين وحده .

وجاء لفظ «دابة» نكرة لإفادة العموم ، والنكرة فى سياق النفى تعم ، واستخدم النص القرآني أسلوب التوكيد بطريق النفي والاستثناء وهو أعلى طرق القصر في قوله تعالى : " وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا" تأكيداً على أنه ما مـن دابـة فـى الـبر ولا فـى البحـر ولا فـى الأرض ولا فـى السماء فيما نعلم وفيما لا نعلم إلا على الله رزقها ، وهـذا يطمئننا إليه أيضا نبينا محمد (صلى الله عليه وسلم) حيث يقول : " لن تموت نفس حتى تستوفى رزقها وأجلها ، فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب" ، وفى التتميم بقوله تعالى : (وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا) (هـود:٦) فائـدة أخرى ، يقـول سيدنا عبد الله بـن عبـاس (رضـي الله عنهمـا) : إن مستقرها حيث

تأوى ومستودعها حيث تموت ، وعليه يكون المعنى يعلم مستقرها حيث تكون ليسوق إليها رزقها حيث كانت فى البر أم فى البحر أم فى الجو ، ويعلم مستودعها أى مكان موتها ، فالموت مقدر زمانا ومكانا ، ولن تموت نفس حتى تستوفى أجلها ، ويكون ذلك فى المكان والزمان الذى علمه وحدده رب الخلائق كلها .

وقد أخرج ابن جرير والحاكم عن ابن مسعود (رضي الله عنه) أنه قال: مستقرها الأرحام ومستودعها حيث تموت، أى أن الله عز وجل يعلم مكانها ومستقرها أول ما تحتاج إلى الرزق وهى لا تزال فى الرحم ، ومستودعها حيث تموت ، حيث يساق إليها قبل موتها آخر ما تحتاج إليه من الرزق.

وتنوين «كل» فى قوله تعالى: (كُلٌّ فِى كِتَابٍ مُبِينٍ) (هود:٦) للعوض ، والتقدير : كل ذلك من رزق كل دابة ، وعلم مستقرها ، وسوق رزقها إليها فيه ، وعلم مستودعها حيث تموت كل ذلك فى كتاب مبين ، (لا يَضِلُّ رَبِّى وَلا يَنسَى) (طه:٥٢).

٦– في قوله تعالى: "وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُوسٌ كَفُورٌ * وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاء بَعْدَ ضَرَّاء مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ * إِلاَّ الَّذِينَ.

صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أُوْلَـئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ"(هود٩-١١).

أ- عبّر النّص القرآني في جانب الرحمة والنعماء بلفظ الإذاقة للتأكيد على أنّ النعمة قد وصلت إلى الإنسان، وذاق حلاوتها، واستمتع بها، طال الزمن في ذلك أم قصر، أما في جانب الضراء فقد عبر الحق سبحانه بكلمة "مسّته" للإشعار بأنّ الضرّاء كانت في أدنى درجاتها، فقد مسّته مجرد مس، وهو أدنى درجات الالتقاء أو الملاقاة، وفي ذلك من اللطف الإلهي ما لا يخفى، وتأكيد على أنّ الإنسان خلق ضعيفًا، وأنه " إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلَّا الْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ" (المعارج:٢٠- ٢٣).

ب- في إسناد الإذاقة إلى الله (عزّوجل) تأكيد على أنها فضل نعمة مساقة من الله إلى عباده وخلقه، أما المس فقد أسند إلى الإنسان، لأن العقاب بإزالة النعم والحرمان منها إنما يكون لتقصير الإنسان في شكرها، يقول الحق سبحانه: "وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ "(إبراهيم:٧)، وقد يكون ذلك ابتلاءً واختباراً، فمن رضى فله الرضا ومن سخط فله السخط، وهذا ما يشير إليه حديث نبينا (صلى الله عليه وسلم):

" عجبًا لأمر للمؤمن إنّ أمره كله خير ، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سرّاء شكر فكان خيرًا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له " (صحيح مسلم).

ج- في التعبير بقوله تعالى: " نزعناها " دون غيره ، كنحو : سلبناها أو أزلناها أو أخذناها ، ما يدل على شدّة تعلق الإنسان بالنعمة وحرصه عليها كما هو الحال في شأن الملك، وهو ما يبينه قوله تعالى : " قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ " (آل عمران : ٢٦) فالإتيان فيه سهولة ويسر ، وفي النزع دلالة على شدة تعلق المنزوع منه بالمنزوع .

د- استخدم النص القرآني صيغ المبالغة:"يئوس" ، " كفور"، " فرِح " ، " فخور " للدلالة على شدة اليأس وكفران النعمة عند هذا النوع من البشر في الحالة الأولى التي هي زوال النعمة عنه ، وشدّة الفرح وهو هنا بمعنى البطر والأشر والاستعلاء على الناس في الحالة الثانية التي هي سوق النعمة إليه ، إلا من استثناه الله (عزّ وجل) وهم الذين صبروا في الضراء وشكروا في النعماء.

٧- فى قوله تعالى : (وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَعَنَا وَلا تَكُن مَعَ الْكَافِرِينَ قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ

يَعْصِمُنِي مِن الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِن أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِن الْمُغْرَقِين) (هود:٤٢ ، ٤٣) .

قال سبحانه وتعالى على لسان نوح (عليه السلام) : «لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم» ولم يقل لا عاصم اليوم من الماء ، تأكيداً على أن الله (عز وجل) إذا أراد أمرًا أي أمر فلا معقب لحكمه ولا راد لأمره أو قضائه (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ) (يس:٨٢) فليس الأمر أمر الماء والجبل فقط ، إنما هو مشيئة الله بإهلاك الظالمين والخارجين على منهجه وشرعته ، فأراد نوح (عليه السلام) أن ينبه ابنه على خطئه في تسميته ماء وتوهمه أنه كسائر المياه التي يمكن أن يتخلص الإنسان منها بالهرب أو اللجوء إلى قمة جبل أو نحوه ، وذكر كلمة «اليوم» للتنبيه على أنه ليس كسائر الأيام التي تقع فيها الوقائع وتلم الملمات المعتادة التي ربما يتخلص منها بالالتجاء إلى الأسباب العادية أو البشرية ، إنما هو يوم خاص فيه عذاب غير مردود عن الكافرين والظالمين ، ولا نجاة فيه بأى سبب إلا بسبب واحد هو التعلق بحبل الله المتين والاعتصام برحمته (عز وجل) ووعده لعباده المؤمنين.

٨- قوله تعالى : (وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَاسَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَت عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) (هود:٤٤) .

سمع أعرابيٌّ هذه الآية فقال : أشهد أن هذا كلام رب العالمين لا يشبه كلام المخلوقين ، وإلا فمن ذا الذى ينادي الأرض أن تبلع ماءها فتبلع ؟ وينادي السماء أن تقلع عن إنزال الماء فتقلع ؟ ويأمر الماء أن يغيض فيطيع ويسمع ؟ ويأمر السفينة أن ترسو على مكانها الذى أراده فتفعل؟ إنه رب العالمين الذى تسبح له السماوات والأرض ومن فيهن ، ويسجد له الكون كله.

وفى هذه الآية من وجوه البلاغة الكثير ، منها : مراعاة النظير وهو الجمع بين الشي وما يناسبه ، فالأرض يناسبها بلع الماء «يا أرض ابلعي» والسماء يناسبها الإقلاع عن إنزال الماء «ويا سماء أقلعي» والماء يناسبه أن يغيض، والسفينة يناسبها أن تستوي ، وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودي ثم جاء التذييل والتتميم بقوله تعالى: « وقيل بعدًا للقوم الظالمين » احتراسًا لئلا يتوهم أن الغرق لعمومه شمل من لا يستحق الهلاك ، كما أن فى اختيار لفظ «الظالمين» دون سواه إبرازًا لسبب الهلاك وعلته ، وأنهم أهلكوا بسبب طغيانهم وظلمهم أنفسهم (وَمَا كَانَ رَبُّكَ

لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ) (هود:١١٧) .

٩- في قوله تعالى: (وَلَقَد جَاءَت رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلاماً قَالَ سَلامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ) (هود:٦٩) .

في قوله تعالى : « قالوا سلاما » تعبير بالجملة الفعلية أي سلمنا سلاما أو نسلم سلاما ، أما قوله تعالى: « قال سلام » فمقول القول جملة اسمية ، والتقدير سلام عليكم أو عليكم سلام ، والتعبير بالجملة الاسمية يفيد الثبات والاستقرار ، فإذا قلت: قام محمد ، فقد يكون قام ثم جلس ، أما إذا قلت : محمد قائم فهذا يعني أنه قائم ومستقر في قيامه مستمر فيه، فرد إبراهيم (عليه السلام) بالجملة الاسمية يفيد أنه حيّاهم بتحية أحسن من تحيتهم لما في ذلك من الثبات ، وهو حق للضيف ، واستجابة لقوله تعالى: (وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَو رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً) (النساء:٨٦) .

١٠- قوله تعالى على لسان إبراهيم (عليه السلام): "رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءامِناً " (البقرة : ١٢٦) ، و"رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ ءامِناً " (إبراهيم : ٣٥) .

في الآية الأولى الكلام عن واقع معين حين زار إبراهيم (عليه السلام) المكان قبل أن يصبح بلدًا ، فدعا (عليه السلام)

لهـذا المكـان أن يكـون بلـدًا وأن يكـون آمنًـا ، فـ "بلـدًا " مفعول ثان لــ " اجعل" ، و "آمنًا " صفة لـ "بلدًا".

أما في الآية الثانية فقد دعا إبرهيم (عليه السلام) للبلد أن يكون آمنًا ، وذلك بعد أن صار بلدًا ، فكلمة " البلد" بالألف واللام بدل من اسم الإشارة ، و " آمنًا " هي المفعول الثاني لـ " اجعل ".

ففـي سـورة البقـرة دعـا إبـراهيم (عليـه السـلام) للمكـان بدعوتين: الأولى: أن يكون بلدًا ، والأخرى: أن يكون أمنًا ، أما في سورة إبراهيم (عليه السلام) فقد دعا للمكان بعد أن صار بلدًا أن يكون آمنًا ، تأكيدًا منه على مطلب الأمن لأهل هـذا البلـد ، وهـو مـا اسـتجاب لـه رب العزة فقـال سـبحانه وتعالى : "... أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ ... " (القصص : ٥٧) .

١١- قوله تعالى على لسان إبراهيم (عليه السلام): " فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ " (إبراهيم : ٣٦) .

لم يسـتخدم الـنص القرآنـي طبـاق السـلب فلـم يقابـل " فمـن تبعني" بمـن لم يتبعني ، واستخدم طباق الإيجاب في قوله : " ومن عصاني" ؛ لأنه لو قال ومن لم يتبعني لشمل الحكم من بلغتـه دعوتـه (عليـه السـلام) ومـن لم تبلغـه هـذه

الدعوة ، أما حين قال : " ومن عصاني " فقد اقتصر الأمر على من بلغته الدعوة وعصى ، وهذا من رحمة الله بعباده ، حيث يقول سبحانه : " وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولا " (الإسراء : ١٥) ، غير أنه تبقى مسئولية كبيرة على الدعاة في البلاغ المبين وتوصيل رسالة خاتم الأنبياء محمد (صلى الله عليه وسلم) إلى العالمين.

١٢- والعطف بالفاء في قوله تعالى : " فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلاَّ تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً " للتأكيد على لُطْف الله (عز وجل) ورحمته بعباده ، ففي اللحظة التي وصل فيها الأسى عندها إلى مداه ، وضاقت عليها الأرض بما رحبت ، كان اللطف والرحمة " قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً "، وهُزّي هذه النخلة التي كانت جافة يابسة تساقط عليك رطبًا جنيًا .

وفي الحديث عن وجود الماء والتمر جاء ذكر الماء أولا: " قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً " أي نهرًا أو جدولا عزبًا ، ثم جاء ذكر التمر ثانيًا في قوله تعالى : " وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً ، أما في الحديث عن ترتيب تناول الطعام والشراب ، فقد جاء ذكر الطعام أولاً والشراب ثانيًا : " فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا " فما سر تقديم الماء في الأولى وتأخيره في الثانية ؟ .

جاء ذكر الماء أولاً في الأولى لأنّ حاجة النفساء إليه أعم وأهم ، فهي تحتاجه للتطهير والغُسْل والشراب ، وحاجتها إليه للتطهير أشد ، كما أن من يأكل الرُطَب يحتاج في الغالب إلى الماء جانبه ، فكان وجود الماء أولاً لتأكل وهي مطمئنة إلى وجود حاجتها من الماء .

أما الثانية فقدم الأكل جريًا على النسق العربي في نحو قولهم : كل واشرب ، يقول الحق سبحانه وتعالى : " وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ " (الأعراف :٣١) ، وفيه أيضًا تأكيد على أهمية التمر بالنسبة للنفساء لسهولته على المعدة في الهضم وفوائد أخرى عديدة .

وذكر بعض أهل العلم نكتة علمية في لفت النظر إلى الأخذ بالأسباب في قصة مريم (عليها السلام) ، فقالوا : إن من أوجد لها جدول الماء وأثمر لها جذع النخلة بالرُطَب الجني كان قادرًا على أن يُرسل إليها التمر على طبق من ذهب أو فضة ، لكنه سبحانه وتعالى قال لها : " وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً " ، تأكيدًا على أهمية العمل وضرورة الأخذ بالأسباب ، فقال الشاعر :

ألـم تـرَ أنّ الله قـال لمريـمَ

وهزي إليكِ الجذعَ تساقط الرطبُ

ولـو شاءَ أنْ تجنيهُ من غير هزّةٍ

جنتـه ولكـن كل شيءٍ لهُ سبـبُ

كما علّق بعض أهل العلم على حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا" (مسند أحمد) ، فقالوا : إنّ الطير تأخذ بالأسباب فتغدو جوعى وتروح وقد رزقت لسعيها ، ولم تمكث وتبقَ في أوكارها أو أعشاشها ، فليتنا نتعلم من الطير سعيها وتبكيرها ، فالغدو هو السير في أول النهار ، والرواح هو العودة في آخره ، وقد حثنا الإسلام كتابًا وسنةً على السعي والعمل ، فقال الحق سبحانه : " فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ " (الملك : ١٥) ، وقال (صلى الله عليه وسلم) : " خيركم من يأكل من عمل يده وإن نبي الله داود (عليه السلام) كان يأكل من عمل يده " (البخاري) .

١٢- في قوله تعالى: (قَالَ بَل فَعَلَهُ كَبِيرُهُم هَذَا فَاسْأَلُوهُم إِن كَانُوا يَنطِقُونَ) (الأنبياء:٦٣).

أ- قال: (فَاسْأَلُوهُم إِن كَانُوا يَنطِقُونَ) ولم يقل: فاسألوهم إن كانوا يسمعون ، لأن المعاند هنا يمكن أن يجادل في قضية السماع ، فيقول لك إن هذه الآلهة تسمع بل ترى لكنها لا تريد أن تجيب الآن ، لكنه لا يستطيع أن يحاجك

فيقول إنها تنطق ، ومن هنا طلب منهم إبراهيم دليلاً لا سبيل إلى وصولهم إليه ، وهو نطق هذه الآلهة إن كانت تنفع أو تضر ، وبما أنها لا تستطيع أن تنطق ، ولا يستطيع أحد أن يماري في ذلك ، فإن عجزها صار بينا وصار حمقهم في عبادتها أبين منه.

ب- في قوله تعالى: (قَالَ بَل فَعَلَهُ كَبِيرُهُم) يقف الكسائى على (فَعَلَهُ)، ويجعل الفاعل مقدرًا أى فعله من فعله، وعليه يكون المعنى: فعله من فعله فلا تنشغلوا بالفاعل إنما عليكم أن تفكروا فى عجز أصنامكم التي لم تستطع أن تدفع عن نفسها ، ثم استأنف فقال: (كَبِيرُهُم هَذَا فَاسْأَلُوهُم إِن كَانُوا يَنطِقُونَ) ، وقال بعض المفسرين: إنما علّق النص القرآنى فعل كبيرهم على نطقهم ، أى فعله كبيرهم إن كانوا ينطقون فاسألوهم ، وجعل جملة (فَاسْأَلُوهُم)جملة اعتراضية.

وقال بعض المفسرين: إن إبراهيم (عليه السلام) سلك فى هذه الآية مسلكاً تعريفيًا يؤدى إلى مقصده الذى هو إلزامهم الحجة على ألطف وجه وأحسنه ، بإسناد الفعل إلى كبيرهم إن كان ينطق ، لينتهي من هذه المحاجة إلى تسليمهم بعجز آلهتهم (لَقَد عَلِمْتَ مَا هَؤُلاءِ يَنطِقُونَ) (الأنبياء:٦٥) .

١٣-قوله تعالى : " وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا

لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ" (الأنبياء:٨٩ –٩٠) .

في قوله : " فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى .... " قدم هبة الولد لزكريا (عليه السلام) على إصلاح زوجه ، على أن النظر في ترتيب الأسباب والمسببات العادية يقتضي أن يتقدم إصلاح الزوج على إنجاب الولد ، لكن النص القرآني جاء على خلاف ذلك ، لأن قدرة الله (عز وجل) ومشيئته لا تحدهما أسباب ولا مسببات فإنما أمره سبحانه وتعالى : " إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ "(يس: ٨٢)، فكأنه (عز وجل) يقول : نحن قادرون على أن نهب لزكريا أو غيره الولد سواء أصلحنا له الزوج أم لم نصلحها ، فما هو عجيب مستغرب عندكم إنما هو سهل يسير في جانب قدرة الله (عز وجل) ، وهو ما أجابت به الملائكة زوج إبراهيم (عليه السلام) عندما أبدت دهشتها وتعجبها في مثل هذا الموقف.

وهو ما يصوره القرآن الكريم في قوله تعالى : "وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ * قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ * قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ

وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ "(هود:٧١ – ٧٣).

إضافة إلى أن تقديم الهبة على الإصلاح تقديم للبشرى ، وهي الأهم في مثل هذا الموقف ، إذ تأتي البشرى أولا للمتلهف لها ، ثم يأتي بعد ذلك تفصيل الكلام أو ذكر الأسباب وبيان الحال ، وقد أمرنا ديننا الحنيف بالبشرى ، وإدخال السرور على النفس البشرية ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : "يسِّروا ولا تعسِّروا، وبشِّروا ولا تنفِّروا" (متفق عليه).

وفي قوله:" إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ " (الأنبياء : ٩٠) بيان وتعليل لسرعة استجابة الدعاء ، ولما ينبغي أن يكون عليه حال من يرجو إجابة دعائه من حسن الصلة بالله (عز وجل) والمسارعة في الخيرات ، والدعاء سرًا وعلنًا ، رغبًا ورهبًا ، في قنوت وخشوع وتضرع واستكانة لله رب العالمين ، فزكريا وآله لم يكونوا يفعلون الخيرات فحسب ، إنما كانوا يسارعون فيها مع ملازمتهم الدعاء سرًا وعلانية رغبًا ورهبًا ، وكانوا لله الأحد خاشعين .

١٤– قوله تعالى : " فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ* رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ

وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ * لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ " (سورة النور :٣٦-٣٨) .

أولًا : في قوله تعالى : " لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ " جاء ذكر البيع بعد ذكر التجارة من باب ذكر الخاص بعد العام ، فما قيمة هذا التخصيص ؟

لا شك في أن التجارة بيع وشراء ، وأن الربح عند البيع متحقق ناجز ، وعند الشراء متوقع أو مظنون لا يتم ولا يتحقق إلا عند البيع ، وقد يعرض للسلعة تلف أو كساد سوق أو تغير أحوال ونحو ذلك ، فلا يلزم من نفي إلهاء الشراء الذي هو قسيم البيع نفي إلهاء البيع ، في حين أن من ترك المكسب المتيقن كان ترك المظنون عليه أيسر ، فالتعبير القرآني بذكر البيع بعد التجارة يفيد شدة إقبالهم على الله بحيث لا يشغلهم عنه شيء ولو كان ربحًا متحققًا في أيديهم .

ثانيًا : في قوله تعالى : " وَإِقَامِ الصَّلَاةِ " آثر النص القرآني التعبير بلفظ القيام دون الوقوف لأمرين :

أحدهما : أن القيام يقتضي الثبات والتمهل ، أو الإقامة ونحوها ، يقال : أقام فلان بالمكان إذا لبث فيه واتخذه وطنًا ، وهذا يعني أن القائم للصلاة أو المقيم لها ينبغي أن

يعطيها حقها من السكينة والطمأنينة .

الآخر : أن القيام من معانيه العزم ، والمحافظة ، والاهتمام بالأمر ، يقال : قام فلان للأمر إذا تهيأ له واستعد ، وشمر عن ساعد الجد لقضائه ، والإسلام لا يريدها مجرد ركعات خاطفة، إنما يريدها عبادة تنبع من عقيدة صادقة ، فتؤتي ثمرتها في إصلاح صاحبها ، فتقوّم سلوكه ، وتنهاه عن الفحشاء والمنكر ، وهذا لا يتأتّى إلا ممن تهيأ واستعد وأخذ الأمر بجد وعزيمة .

وهنا يتوافق سياق النص مع سياقه القرآني الذي آثر لفظ القيام ومشتقاته دون لفظ الوقوف في جميع المواضع أو الآيات التي تحدثت عن الصلاة وإقامتها ، فقال سبحانه : " وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ..."(البقرة : ٢٧٧) ، " وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ... " (البقرة : ٣) ،" لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ..." (إبراهيم : ٣٧)، " وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ... " (البقرة : ٤٣) ، " قُمِ اللَّيْلَ ... " (المزمل : ٢) ، " سُجَّدًا وَقِيَامًا ..." (الفرقان : ٦٤) ،"وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ .." (النساء : ١٦٢) ، إلى غير ذلك من المواضع .

ثالثًا : أكدت هذه الآية أن الذين يعمرون بيوت الله يذكرونه ويسبحونه هم رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وهو ما أكدته – أيضًا – آية التوبة بأسلوب القصر " إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ

الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ " (التوبة : ١٨) ، وهو ما يؤكد التئام النسق القرآني ، وانسجام بعضه مع بعض، وتفسيره بعضه لبعض ، وتقوية هذا المعنى لذلك ، وارتباطه به ، وإن تباعدت مواضع السور أو الآيات .

رابعًا: لما كان فعل هؤلاء الرجال متميزًا في إخلاصهم لله ، وتركهم المكاسب الدنيوية ابتغاء رضوانه ، كان عطاء الله لهم خاصًا ومتميزًا ، فإنه سيجزيهم أحسن ما عملوا ، ويزيدهم من فضله ، وفي التذييل بقوله تعالى : " وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ" ما يوحي بأن الله سيعطيهم عطاء لا حدود له ، أو سيرزقهم بما لم يكن في حسابهم ، ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

١٥- في قوله تعالى على لسان إبراهيم (عليه السلام) : " الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ * وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ" (الشعراء : ٧٨-٨٢) .

جاءت التراكيب " الَّذِي خَلَقَنِي " ، " وَالَّذِي يُمِيتُنِي "، "وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي" بدون ضمير الفصل " هُوَ " ، في حين جاءت التراكيب : " فَهُوَ يَهْدِينِ " ، "هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ " ، " فَهُوَ يَشْفِينِ " ، مشتملة على ضمير الفصل " هُوَ"،

وذلك لأن الأفعال الأولى المتمثلة في الخلق والإماتة والإحياء ومغفرة الذنوب لا يجادل فيها أحد ، بل إن أكثر الناس على التسليم المطلق فيها لله (عز وجل) ، أما جانب الرزق المعبر عنه بالإطعام والسقيا ، وجانب الشفاء ، وجانب الهداية إلى الصراط المستقيم فهو مما يغفل كثير من الخلق عن الاعتماد على خالقهم فيه ، وتهتز عند بعضهم فيه قضية التسليم المطلق ، فتجد منهم من يخادع أو ينافق أو يغش ظنًا منه أن ذلك قد يجلب له نفعًا في الرزق أو يدفع عنه ضررًا ، ناسيًا أنه لن تموت نفس حتى تستوفي أجلها ورزقها ، كما أن بعض الناس قد يذهب في مسألة التداوي إلى بعض الدجالين والعرافين والمشعوذين ، فلما كان الحال عند بعض الناس في هذه الأمور ينقصه اليقين المطلق في الله (عز وجل) جاءت هذه الأفعال مؤكدة بضمير الفصل ، ليؤكد النص القرآني أن رب الخلق ورب الإحياء والإماتة هو رب الهداية ، هو رب الإطعام ، ورب السقيا ، ورب الشفاء ، فكما أنه لن تموت نفس حتى تستوفي أجلها ورزقها ، فليس من الإيمان واليقين أن نفوض الأمر لله (عز وجل) في الأمور الأولى ولا نفوضه إليه في الأمور الأخرى ، فهو وحده القادر على هذا و ذاك ، والأمر كله له " إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ " (يس : ٨٢) ، وكان نبينا (صلى الله

عليه وسلم) يقول : " اطلبوا حوائجكم بعزة الأنفس فإن بيد الله (عز وجل) قضاءها ".

١٦- قوله تعالى : (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ إِذ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ) (الشعراء : ٦٩ – ٧١) .

في جوابهم على قوله: (مَا تَعْبُدُونَ) كان يكفي أن يقولوا: (نَعْبُدُ أَصْنَاماً) لكنهم أطنبوا في الحديث فزادوا (فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ) وهذا دليل على تبجحهم في ضلالهم ، فهم لا يعبدون فقط هذه الأصنام ، إنما يعكفون على عبادتها، وكان ذلك إمعانا منهم في التعنت وإشعارا لإبراهيم (عليه السلام) بعدم نيتهم الاستجابة له أو الانصراف عن عبادة هذه الأصنام.

١٧- في قوله تعالى : " وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا" (الزمر :٧١) حيث جاءت كلمة " فتحت" غير مسبوقة ولا مقرونة بالواو ، وقوله تعالى : "وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا " (الزمر : ٧٣) حيث جاءت كلمة " وَفُتِحَتْ" مسبوقة بالواو ، فهذه الواو التي جاءت في قوله تعالى : " وَفُتِحَتْ " في الحديث عن أهل الجنة قال بعض العلماء والمفسرين: إنها واو الحال ، والمعنى: جاءوها

والحال أنها مفتوحة ، وذلك من زيادة إكرام الله (عز وجل) لعباده المؤمنين أن جعل الجنة مفتحة الأبواب مهيأة لاستقبالهم قبل قدومهم إليها ، والحال ليس كذلك مع أهل النار ، بل إن النار تأخذهم بغتة .

وقال بعض المفسرين واللغويين: إن هذه الواو واو الثمانية، ذلك أن بعض القبائل العربية كانت تعد ، فتقول : واحد ، اثنان ، ثلاثة ، أربعة ، خمسة ، ستة ، سبعة ، وثمانية ، فتأتي بالواو مع العدد الثامن ، وذكروا لذلك شواهد منها قوله تعالى : " سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ " (الكهف :٢٢) حيث ذكرت الواو مع العدد الثامن ، وقوله تعالى: " التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ" (التوبة:١١٢) حيث ذكرت الواو مع العدد الثامن ، وقوله تعالى : " عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا " (التحريم :٥) حيث ذكرت الواو أيضًا مع العدد الثامن ، مع أن الواو في هذه الآية لها معنى آخر وهو إفادة التنويع ، ولا مانع أن يتضمن الحرف أكثر من معنى.

وقد ذكرت واو الثمانية في قوله تعالى : " وَفُتِحَتْ "

في الحديث عن أهل الجنة دون قوله تعالى : " فُتِحَتْ " في الحديث عن أهل النار ، لأنّ أبواب النار سبعة لقوله تعالى في الحديث عنها : " لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ "(الحجر : ٤٤) ، أما أبواب الجنة فثمانية لقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : " من توضأ فأحسن الوضوء ثم قال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين فتحت له ثمانية أبواب يدخل من أيها شاء " (الترمذي) ، فلما كانت أبواب الجنة ثمانية أُتي معها بالواو ، ولما كانت أبواب جهنم سبعة لم يؤت معها بالواو ، وفي كون أبواب الجنة ثمانية وأبواب جهنم سبعة ما يدل على أن رحمة الله (عز وجل) أوسع من غضبه ، يقول الحق سبحانه وتعالى : " قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ " (الزمر:٥٣) .

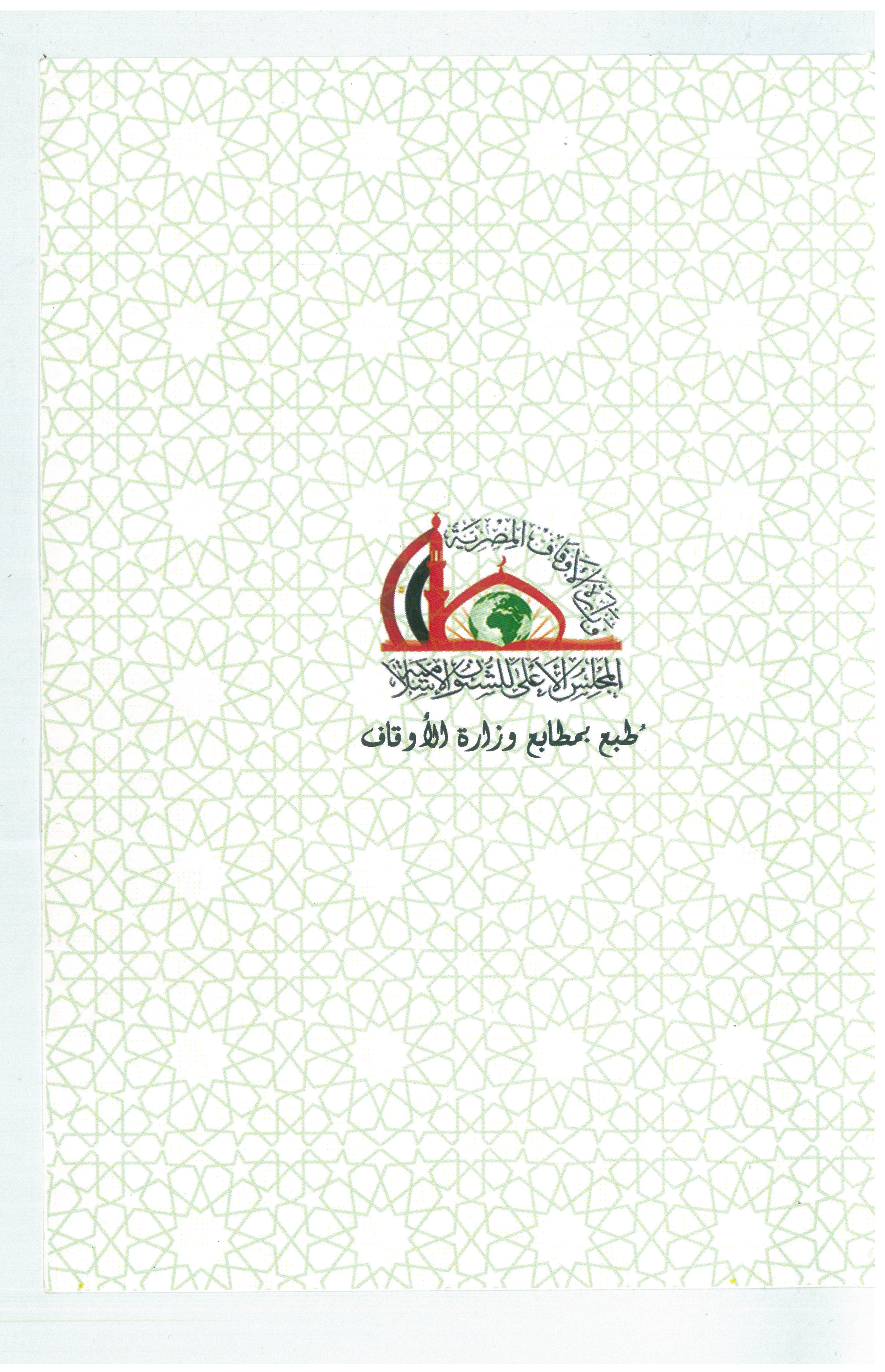
* * *

فهرس الموضوعات



طبع بمطابع وزارة الأوقاف




وزارة الأوقاف المصرية
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
طبع بمطابع وزارة الأوقاف